مهرجان الموت

﴿ خمائل نعيم ﴾

* * *

كانت الساعة التاسعة من الليل . وكان المطر الذي هطل طول النهار السابق قد كف . لكن السماء ما زالت ملتحفة بغيوم كثيفة سوداء تخترقها بين المدة والاخرى ، هنا وهناك ، اشعة نجم ضئيلة ، ثم يختفي النجم وتعود الغيوم فيلتصق بعضها ببعض سابحة عَلَى مهلها في الفضاء الواسع كامواج اوقيانوس لا بدء له ولا نهاية . لو دخل القرية غريب في مثل تلك الساعة لتعذر عليه ان يجد فيها اثراً للحياة عَلَى الاطلاق ولظن بيوتها الراقدة عَلَى ظهر الارض تحت جنح الليل مدافن او صخوراً قذفتها الجبال المجاورة من اجوافها . لا نباح كلب ولا عواء ذئب ولا مواء هرة ولا صوت بشري — سكينة عميقة خرساء لا تحركها سوى هبات نسمات لطيفة من ريح حزيران تمر باشجار التوت فتنفض عن اوراقها دموع السحاب المستترة بين ضلوعها فتنحدر هذه القطرات من ورقة الى ورقة حتى يخيل للسامع ان السماء عادت ففتحت انابيبها .

في مثل تلك الساعة كان شبح يسير بين اشجار التوت المحيطة بدار غنية ذات ثلاث طبقات منفردة عَلَى طرف القرية ، جدرانها بيضاء وسطحها

مغطى بالاجر الاحمر . بنت دار موسى السحتوتي — اغنى رجل في كل القرية . ولد فقيراً فجمع بالتقتير والاحتيال الوفاً من المال واقتنى املاكاً واسعة ، يتمتع بها الان وحده ، فاعطته نفوذاً في القرية كنفوذ سلطان مطلق.

الشبح كان يسير موجهاً خطاه نحو باب هذه الدار الشرقي . يمشي ولا يسمع لخطاه وقع عَلَى الارض الرطبة . لكنه ، لشدة الظلام ، كان يعثر بجذوع الشجر واغصانها فيقع ويقوم متمتماً ويكسر ما تصل اليه يداه من الاغصان التي كانت تشتبك تارة بشعر رأسه فتطرحه الى الوراء واخرى تضربه عَلَى وجهه فتكاد تدميه او تعدمه بصره .

وصل الشبح اخيراً الى اسفل الدرج الشرقي فتسلقه الى ان وصل الى باب الطبقة الثانية ، حيث كان رب البيت ساكناً . شرفات الدار كانت كلها مقفلة ولا اثر فيها للنور . وقف الشبح قليلاً ليستريح من عناء سيره ثم اخذ مطرقة عَلَى الباب بيأة يد قابضة عَلَى تفاحة وطرق مرة وعاد يستريح . صوت طرقه حرك السكينة الميتة حواليه فاعترته قشعريرة . لكنه تغلب عَلَى خوفه واذ لم يسمع جواباً طرق ثانية وثالثة بعنف اكثر من الاول لكن الباب الكبير امامه لم يتحرك . ولما كاد ان يعتريه اليأس اخذ المطرقة وبدأ يضرب عَلَى الباب ، كحداد عَلَى سندانه ، الى ان طرق اذنيه وقع خطوات عَلَى بلاط الدار داخلاً ثم صوت سعال متقطع

— مين ؟ قح — قح — قح ...

فاجاب الشبح بصوت ضعيف فيه خوف واشمئزاز وكبرياء ووجع

—هذا انا ... انا — سليمة . — فانقطع السعال داخلاً وجاء بعده سعال جديد

— أيا سليمه ؟

— سليمه — ألم تعد تعرف سليمه ؟ — سليمه نجار ...

وللحال قلقل المفتاح الحديدي في القفل وانفتح الباب فخرجت منه رزمة اشعة نحيلة من شمعة كان يحملها صاحب البيت في يده انارت بعض اغصان التوت الملاصقة للدرج . مرّت هبة ريح خفيفة فألتوى نور الشمعة يميناً ويساراً حتى كاد ان ينطفىء لو لم يتدارك موسى الامر ويغلق الباب بسرعة آخذاً بيد زائرته وجاذباً اياها الى الداخل

—اهلاً وسهلاً . اهلاً وسهلاً بزين العابدين . ايقظتني من حلم لطيف فكانت يقظتي ألذ من حلمي . فكري كان يدلني انكِ ستعودين وتندمين عَلَى ما فعلتِ وتقبلين بما عرضته عليكِ . ويسرني ان فكري لم يخدعني وان عقلك قد عاد الى رأسك . هه — هه — هه . انتنّ النساء — اطوار كنّ غريبة عجيبة . تتقلبن في النهار القصير الف مرة . ولكنكنّ ، في اكثر الاحيان ، ترجعنَ الى السراط المستقيم . هه — هه — هه .

سليمة بقيت جامدة وراء الباب كأن رجليها التصقتا بالارض وكأنها ندمت عَلَى مجيئها واخذت تبحث في عقلها عن حيلة تتخلص بها من المأزق الذي رمت فيه نفسها . تلك لم تكن اول مرة وقفت فيها وجهاً لوجه مع موسى السحتوتي وحدته . لكنها كانت اول مرة رأته فيها عَلَى تلك الحالة .

منظر محدثها ارسل قشعريرة في كل جسمها وكلماته كانت تكتنف قلبها كطوق من الجليد فيبرد الدم في عروقها وتكاد تنسى الغاية التي جاءت لاجلها · رأت امامها شبه رجل في قميص نوم فيها كل ألوان قوس القزح · اطراف قميصه تصل الى تحت ركبتيه بقيراطين وما بقي من رجليه العاريتين الخاليتين من اثر الشعر فكان مكشوفاً · قميصه كانت مفتوحة كذلك على صدره من عنقه حتى ما فوق سرته بتليل ، تبان من تحتها اضلعه المقوسة كأنها هيكل عظام مغطى بجلد رقيق مدبوغ · ذقنه مزدوج واسع يكاد يبلغ حجمه حجم كل وجهه النـاشف الشاحب · شفته السفلى قد تدلت الى نصف ذقنه · وشفته العليا لم تستر كل اسنانه الصفراء · على طرفيها عدة شعرات خشنة سوداء بعضها قد اتجه الى فوق والبعض ألتوى الى اسفل · عيناه صغيرتان مدورتان ، اختلط فيهمـا لون الرماد والزفت والزعفران ، تدوران بين اجفانهما المتجعدة كنقطتين من الزئبق · وفي هذه الدقيقة التي نتكلم عنها كانتا تحاولان ان تنظرا الى الزائرة بلطف وابتسام لكنهما بدل اللطف كانتا تنظران بجشع شهواني كما ينظر الهر الى الفارة وقد وثق ان لا مناص لفريسته من بين اظافره · فوق نقطتي الزئبق امتدّ خطان عينتهما الطبيعة ان يكونا حاجبين لكنها لم تتم مشروعهـا فلم تزينهما بشعر على الاطلاق · اما جبهته ، التي كانت في صغره اضيق من طريق نملة فقد اتصلت اليوم بقسم كبير من جمجمته التي عرّتها السنون من كل زينة الشباب والرجولية · رأسه المسطح من الوراء والامام لا شعر عليه سوى قليل فوق

اذنيه ورقبته . وهذه الصورة البشرية كلها ولم يكن طولها يزيد عَلَى الذراع والنصف ، كانت واقفة عَلَى قبقاب خشبي عالٍ تنظر عَلَى ضوء الشمعة في يدها الى وجه زائرتها الواقفة امامها كأن رجليها قد سمرتا الى الارض

بعد ان نظر موسى السحتوتي ملياً الى وجه سليمة لم يتمالك من ان يهتف بصوت غير صوته العادي

— مالي ارى الورد في وجه حبيبتي زين العابدين قد ذبل ؟ هه — هه — هه . هل طرأ عَلَى زين العابدين مرض في هذه الايام ؟ — السحتوتي تعجب حقيقة لما رأى اصفرار وجه سليمة وكان يعهد ذاك الوجه نضراً كورد ايار . اما الان فقد زاد اصفراره تأثيراً وعظمة ما رآه من ذبول عينيها السوداوين وعمق الام الروح التي ارتسمت فيهما كلجة بحر لا قياس له . كل خط من خطوط وجهها الجميل كان مرآة تنعكس فيها آلام نفسها ، والمنديل الذي عصبت به رأسها مع القسطان الاسود البالي الذي سترت به جسمها النحيل لم يكونا سوى شاهدين خارجيين عَلَى اوجاع قلبها الداخلية . شعرها الاسود وعصابتها السوداء وثوبها الاسود البالي وضوء الشمعة الضئيل في يد السحتوتي جعلت سليمة تبان كراهبة منقطعة عن العالم او كشبح زار هذه الارض وهو ليس من سكانها .

لكن هذا المنظر لم يكن ليؤثر بقلب موسى السحتوتي الذي اخذ بيد سليمة بشدة كأنه اراد ان يجرها وراءه قسراً .

— تعالي معي يا حسناء الى غرفة النوم فالسرير مُعد لاجلك من زمان .

أما قلت لك اني احبك كما احب اموالي وارزاقي ؟ تعالي يا حسناء ! تعالي · هه · هه · هه ·

سليمة جذبت يدها من يده بلطف لكن صدرها المرتفع والمنخفض بسرعة كان يعبر بوضاحة عن العاصفة التي كانت تجيش في صدرها · مع ذلك تمكنت من ان تجيب بصوت منخفض

— ألا ترى اني حافية الرجلين ؟ اخاف ان اوسخ ارض دارك الجميلة · — أمال موسى الشمعة في يده الى اسفل ونظر الى رجلي سليمة فرآهما عاريتين مغطاتين بالاوحال · — وبعد سكوت قصير عادت سليمة الى الكلام وصوتها مضطرب اكثر من الاول

— موسى افندي ! موسى افندي ! اخي يموت وانت قادر ان تنشله من بين مخالب الموت · اخي يموت جوعاً — ورغيف خبز يرده الى الحياة · وعندك كثير من الخبز — فهلاً تجود علي برغيف ؟ — لماذا تطلب لرغيفك ثمناً ليس في طاقتي دفعه ؟ لما كان لم يزل عندنا قليل من الارزاق كنا نبيعك اياها ونقتات بثمنها · والان ارزاقنا كلها اصبحت في يدك · — البيت الذي نسكنه الان مرهون عندك · لم يبق عندنا شيء للبيع · وما بقي لا يشتريه احد · البارحة بعت حذائي — وهذا آخر ما كان عندي · الحكومة اخذت البقرة الاخيرة التي كان حليبها يرد عنا بعض الجوع · ابي مات — وانت تعرف كيف مات · مات جوعاً لانه انقطع عن الاكل كي لا يموت اولاده امام عينيه · كان في وسعك ان تنجيه فلم تفعل · طلبت مني ان

ابيعك نفسي لقاء قليل من الخبز لابي — فلم ارض لان ابي لو درى بذلك لفضل الموت عَلَى عار ابنته · اخذه الموت قبل ان يأخذني · امي مفلوجة لا تقدر الا عَلَى البكاء · اختي الصغيرة تقضي نهارها في جمع الاعشاب في البراري · واخي بطرس ··· (هنا اجهشت سليمة بالبكاء) اخي بطرس — انت تعرفه — فرخ لم يكتسِ بعد بالريش · لما مات ابي لم يوصني سوى به · قال لي · « ديري بالك لحيك يا بنتي ··· ما لبش عندك وصية الا هو » ابي كان لا يحلف الا باسمه · بطرس كان عنده الكل بالكل · اوصاني به — وماذا اقدر ان افعل ؟ ··· قل لي — ماذا اقدر ان افعل ؟ من اين آتيه بقوت الحياة ؟ انا كبيرة اقدر ان احتمل الجوع يوماً ويومين وثلاثة — فكيف يحتمل الجوع يوماً جسمه الصغير ؟ الجوع يحصد النـاس من حوليَّ شيوخاً واطفالاً ، رجالاً ونساء ، مات من هم اقدر مني واغنى مني · فماذا اقدر ان افعل انا — ماذا تقدر ان تفعل ابنة ضعيفة مثلي ؟ أمس عثرت عَلَى غراب ميت قرب الساقية · رفعته بيدي فكدت اقع مغشية عليَّ من رائحته المنتنة · طرحته بين الادغال وذهبت الى البيت فوجدت امي تبكي واختي تبكي واخي ملقى عَلَى الارض فظننته ميتـاً · رفعته بين ذراعي وضممته الى صدري ففتح عينيه الذابلتين ونظر اليَّ فكدت ارى في تلك النظرة روحه التي تفارق جسده · ثم فتح شفتيه الصغيرتين وقد فارقتهما آخر قطرة من الدم وقال · « اختي ··· بدي آكل ··· » وظلَّ يردد « اختي بدي آكل ··· » حتى انقطع صوته من الضعف وعاد الى الغيبوبة · كلمانه

اخترقت قلبي كخناجر · وضعته من بين يدي عَلَى الارض وركضت كالمجنونة الى حيث تركت الغراب الميت · اخذت الغراب وطبخته واطعمت اخي من لحمه · عادت روحه اليه وابتسم قليلاً ثم اطبق عينيه وانغمس في غيبوبة جديدة · تركته في غيبوبته وخرجت اسأل عن رغيف خبز فلم اجد · من عنده كسرة خبز يضن بها عَلَى سواه ويحفظها لنفسه او لعياله · ومن ليس عنده يقتات بالاعشاب ويموت · انت لا عيال عندك يا موسى افندي — انت تقول انك تقدر ان تطعم هذه القرية كلها لسنة من مالك وغلال ارزاقك · فهلاً تخلص حياة اخي لمجد الله ؟ ربما قدرت ان اكافئك في المستقبل وان لم اقدر فالله يكافئك عني ··· لماذا تطلب مني ثمناً انت تعرف اني لا اقدر عَلَى دفعه ؟ انت تعلم اني مخطوبة لشاب احبه اكثر من حياتي واعرف انه يحبني · انت تعرف اني انتظر رجوعه من بيروت من ساعة الى ساعة وانه لو كان هنا لما اضطررت ان اطرح نفسي عَلَى معروفك — فلماذا تطلب مني ان أفسخ خطبتي واقترن بك ؟ انت رجل غني وجيه ، وانا ابنة فقيرة حقيرة · عمرك ٤٠ سنة وعمري ١٨ سنة فقط · حتى لو قبلت ان اقترن بك تكون حياتنا مرة شقية · وانت تعرف ذلك — فهل تطلب الشقاء لي ولنفسك ؟ انا لا احبك ولا اقدر ان احبك ، وانت تعرف ذلك ايضاً — فلماذا تطلب المستحيل ؟ — مع ذلك فهل هذا الوقت وقت زواج وطلاق ؟ هذا وقت موت · وقت حرب الموت والحياة · اخي يموت ، وان مات اخي فسأموت انا بعده في الساعة نفسها — فهلاً تخلصني وتخلص اخي وانت

قادر ان تفعل ذلك بدون خسارة وتضحية ؟ دعني انا وشأني . دعني امت . دعني اضمحل — لكن حلفتك بربك ، ان كنت تعبد رباً ، وباعز ما عندك ان كان عندك عزيز ، ان تنجي اخي من الموت جوعاً .... انت انسان وفيك قلب بشري — فهلاّ تحرك قلبك الرأفة بالبائسين والتعساء ؟ — ارحم بربك يا موسى افندي ! مالك ولي انا ؟ ماذا تطلب فيّ وفي جسمي ؟ ألا تراني واقفة امامك كشبح من القبور — فماذا تطلب من هذا الجسم النحيل عندك ذهبك وفضتك واملاكك تغنيك عن ملذات العالم كلها — فماذا تطلب من هذا الوجه الشاحب وهذا الصدر الذي يملوه الهم والحزن ؟ لماذا تطلب مني ان اقضي معك ليلة في فراشك — لماذا تحب ان تهلبني عفافي وانت تعرف اني احفظه لسواك ؟ لماذا تطلب مني ان ابيع شرفي — لا بل ان ابيع نفسي — برغيف من الخبز ؟ لو كانت حياة اخي في موتي لما تأخرت لحظة عن اقتبال الموت — لكنني اكره ان اموت كما تشاء انت ان اموت — مغطاة بالعار والفضيحة . لاني لو سلمتك نفسي لما قدرت ان اعيش نهاراً واحداً بعد ذلك — فعلى من اترك اخي واختي وامي ؟ وماذا يكون ننعك من ذاك او نفع اخي او نفعي ؟ — انا فتاة ضعيفة يا موسى افندي وانت رجل قوي — فهلاّ تخجل ان تستعمل كل قوتك المالية والجسدية ضد ابنة يتيمة ، فقيرة ، ضعيفة مثلي ! ... انت تعلم اني احب اخي اكثر من نفسي وان اخي بين ذراعي الموت في هذه الدقيقة واني لا اقدر ان احصل على قوت لخلاصه الا من عندك واني مستعدة ان اضحي حياتي

لاجل اخي — فهل تطاوعك نفسك ان تطلب مني ثمناً اذا دفعته فانت تعرف اني اودع معه الحياة · هلاّ تخلص غريقاً الا اذا كتب لك صكاً بحياته ؟ بالله ارحم · بالله رقّ · بالله اشفق يا موسى افندي ! الليل بارد مظلم · روح اخي الصغيرة تحارب الموت وهي عَلَى آخر رمق · اختي الصغيرة تبكي وتطلب اكلاً · امي المفلوجة تولول — فاعطني ما اسد به رمقهم ولك الاجر عند الله · خذني عبدة لك الى الابد — انما اعدل عما طلبت مني سابقاً · اعطني رغيفاً او اثنين ودعني ارجع من حيث اتيت ··

كانت الكلمات تخرج من صدر سليمة متسابقة يعثر بعضها باذيال بعض حتى خنقتها العبرات فانقطع صوتها فجأة كأن لسانها التصق بحنكها · ثم اخذت تكفكف دموعها بيديها اذ لم يكن معها منديل · وموسى السحتوتي كان واقفاً يبرق بعينيه ويحك جنبيه ضاحكاً كأن سليمة كانت تمثل امامه دوراً سخرياً ·

— هه — هه — هه — ألي من ايده الله يزيده ! لو قبلتِ بشروطي من الاول لما مات ابوك · واذا قبلتِ الان فلا يموت اخوك ولا تموتين انت · وشروطي بسيطة للغاية · اما ان تتركي ابن العطار وتصيري زوجتي الشرعية او ان تنامي عندي ليلة لقاء كل رغيف تأخذينه مني · هل تطلبين قلباً ارق من قلبي بعد ؟ هه — هه — هه · اذا مات اخوك او امك او اختك من الجوع فلا تلومي سوى نفسك · حياتهم في يدك · تصرفي بها كيف شئتِ · انا احب من كل قلبي ان اساعدك واساعد اهلك اكراماً لمجد الله — جل اسمه ·

وانت لا تحبين -- فهل اكون انا الملوم ؟ هه — هه — هه ·

سليمة لم تنبس ببنت شفة · جمدت عيناها وتشنجت اعصابها ووقفت كأنها جثة انفصلت عنها روحها · هي قد سمعت تلك الشروط من زمان · وقد فكرت فيها طويلاً حتى كادت تضيع سلطتها عَلَى افكارها · وتخيل لها مراراً انها قريبة من الجنون · تارةً تحتم عَلَى نفسها بالقبول ، فلا يطول ان تتمرد نفسها الطاهرة عليها وتسمع قلبهـا يردد · « كلا · كلا والف كلا ! » وطوراً تقرر في عقلها ان تتفل في وجه السحتوتي وتعانق الموت مع اهلها بشجاعة وشرف ، فيرن صوت اخيها الصغير في اذنيها · « اختي ··· بدي آكل ··· » وتعود اعصابها فترتخي وتعود اوصال قلبها تتقطع بين العزم والتردد · والان ، وهي واقفة امـام السحتوتي ، تجددت نار هذه الحرب الروحية في داخلها ، وانقسمت نفسها الى مهـاجم ومدافع لا يكاد واحدها يستظهر عَلَى الاخر حتى ينقلب تيار المعركة فيتخذ المدافع خطـة المهجوم والمهاجم خطة الدفاع · مرّ امامها صباها ، لما كانت تسرح وتمرح برغد وصفاء ، خالية من هموم الحياة واتعابها · رأت نفسها عَلَى مقعد المدرسة بين اترابها وخلانها فانتصبت للحال امام عينيها صورة فتى في اول العمر ، جبلته الطبيعة من طين الجمال والقوة واللطف · تذكرت ذاك الاحد من آذار ، لما خرجت برفقته وزمرة من اقرانها الى البرية لجمع الازهار · حين انفردت به بين الادغال عَلَى حافة النهر ، فعثرا هناك عَلَى بقعة يكسوها البنفسج · وحين انطرحا كلاهما باتل من طرفة عين عَلَى البنفسج واخذا يقطعانه ، وحين

تنظم هو باقته بذوق فائق وزين بها شعرها · وحين زينت بباقتها صدره المضطرب · وحين افاقت من تلك السكرة اللذيذة فوجدت نفسها بين ذراعيه بالقرب من بقعة البنفسج · هناك تم اعظم سر في حياتهـا · تبادلت مع حبيبها الوعد ان تكون له ويكون لها الى الابد · السنوات التي مرّت بعد ذلك لم تزده سوى جمال ولطف ولم تزدها سوى شغف به · تذكرت تلك الليلة التي عقدت فيها خطبتهما عقداً كنائسيـاً وكيف اخذت بعد ذلك تستعد للعرس · وماذا جرى بعد ذلك ؟ هل حسدتهـا السماء والارض عَلَى سعادتها فتحالفتا ضدها ؟ حرب وفناء وخوف وجوع وموت — هل قضت عَلَى سعادتها كذلك ؟ — كلا · هذه غيوم وقتية · ستعود الشمس فتشرق · سيعود فؤاد من بيروت · سيأتيهم بحنطة وطحين وزيت · وهناك تنتهي الحرب · فكيف يجسر هذا البهيم الواقف الان امامها ان يطلب منها مـا تصونه من زمان لفؤادها ؟ كيف يجسر ان يدنس طهارة حبها بلسـانه القذر ؟ — كلا · كلا والف كلا ! سترفسه بطرف رجلها الحافية وتتفل في وجهه الذي يشبـه وجه القرد اكثر من وجه الآدمي · لكن — اين فؤاد ؟ قد ذهب الى بيروت من مدة اسبوع ولم يرجع · هل حلّ به سوء لا سمح الله ؟

« اختي ··· بدي آكل ··· » — انتفضت سليمة كورقة هزتها الريح فلامت نفسها لانها الى تلك اللحظة لم تفكر سوى بامر سعادتها · ومن هي وما هي سعادتها تزاء الموت الذي يحصد الناس من حولها كل صباح وكل مساء ؟

هل نسيت اباها ؟ هل نسيت امها المفلوجة المطروحة في الزاوية كجثة لا اثر فيها للحياة سوى الدموع التي تسيل من عينيها الجامدتين ؟ وان نسيت امها فكيف تقدر ان تنسى اخاها واختها . فؤاد ربما لا يرجع في اسبوع او أسبوعين . والجوع لا يرحم ولا يصبر . عمها في اميركا لم يجبها الى الان على كتاب ارسلته له من نصف سنة تطلب فيه معونة مالية . فمن اين الفرج ؟ السحتوتي يقدر ان يأتيها بالفرج — لكنه يطلب المستحيل . لماذا يعطي الله خيراته لرجل كالسحتوتي ويمنعها عن المعوزين والايتام ؟ لماذا لا يجود الاغنياء بشيء من اموالهم على الفقراء في مثل هذه الايام ؟ هل تحولت قلوب الناس الى حجارة ؟ في اميركا الوف من اللبنانيين — فلماذا لا يفكرون بمن تخلف منهم في لبنان ؟ ريال واحد يدرأ الجوع عن اخيها اسبوعاً ، وربما شهراً — أفليس من يجود بهذا الريال ؟ السحتوتي قادر — لكنه يطلب هتك عرضها . وما هو عرضها — هل هو اثمن من حياة اخيها ؟ هل طهارتها اثمن من حياتها ؟ هي مستعدة ان تضحي حياتها لاجل اخيها — فلماذا لا تضحي عرضها وحياتها معاً . تخاف الفضيحة — واية فضيحة ؟ من يجسر ان يرميها بحجر اذا كانت تفعل ذلك لاجل اخيها لا لارضاء شهوات دنيئة ؟ لكن — باقة البنفسج — فؤاد — ابوها — امها — اختها — اخوها . « اختي ... يدي آكل ... »

تموجت كل هذه الافكار في رأس سليمة بلحظة واحدة فشعرت ان الارض مادت بها ، واصابها شلل عقلي ، فجمدت افكارها وتوترت اعصاب

وجهها وجحظت عيناها ·

السحتوتي كان ينظر الى وجهها ولا يشعر بشيء من العاصفة التي كانت تثور في صدرها ، فظن سكوتها الطويل قبولاً بشروطه وتأكد صحة ظنه لما نقل الشمعة من يده اليمنى الى اليسرى ثم رفع يده اليمنى وطوّق بها عنق سليمة فلم تبد اقل معارضة · حينئذٍ لم يبق عنده شك بان قد فاز بما كان يشتهيه من زمان ، وان هذه الفتاة التي كانت تعد زينة القرية ستمسي ملكه في ساعة او اقل من ساعة · لذلك ضمها الى صدره العظمي وقال باسماً ابتسامة الظافر ·

— اذن قبلت زين العابدين ان تكون زوجتي — ها ؟ ما احسن زين العابدين لما ترد عقلها الى رأسها · هه — هه — هه · كان قلبي يدمى لها كنت افتكر ان سيفوز بزين العابدين من لا يعرف قيمتها · ومن يعرف لها قيمة مثلي ؟ أليس حراماً ان يُسلم مستقبل حبيبتي الى صعلوك ، ابن زنى ، فقير ليس عَلَى جلده قميص ؟ — قال ذلك وانحنى برأسه نحو وجه سليمة قاصداً ان يقبلها فلم تشعر سليمة بنفسه المنتن عَلَى وجهها حتى جذبت نفسها فجأةً من بين ذراعيه ودفعته بعنف الى الورآء ، فكاد ان يسقط الى الارض ، لو لم يصطدم بالحائط ، وانتصبت امامه كلبوءة تقدت شبلها · عيناها تقدحان شرراً · ثدياها يرتفعان ويهبطان · وكل نقطة من الدم في جسمها النحيل قد ركضت الى وجهها الذي كان قبل ذلك بلحظة اشد اصفراراً من الزعفران ·

— لسانك اقصر من ان يتكلم سوءاً عن فؤاد . ألا تعرف ان فؤاداً في فقره اشرف وارفع منك في غناك ؟ كل ارزاقك واموالك لا تساوي مسماراً في نعله . هو ملاك وانت شيطان . هو شهم وانت نذل . هو حي ولو جاع وانت ميت ولو شبعت . هو يموت لاجل الناس وانت تعيش بموتهم . تفه والف تفه عليك وعلى ارزاقك وأموالك وخبزك . اذا كانت الحياة لا تأتي الا عن يدك فالف سلام على الحياة والف سلام على السعادة — وما احسن الموت ! انا جئتك اطلب الخبز ليس لنفسي بل لطفل صغير تناضل روحه الموت ولم يعرف لذة الحياة بعد — لم يعرف الخير من الشر . واذا ضننت برغيف فستلقى جزاء من يد اقدر من يدي . ابتعد عني ولا تدنسني بيدك ! ابتعد عني ! ابتعد عني ! —

انطرحت سليمة الى الباب وهي لا تعي على شيء . ولما وضعت يدها على قبضة الباب لتفتحه ادركت انه كان مقفلاً وان المفتاح كان مع صاحب البيت . فوقفت هنيهة وللحال مرت امام عينيها صورة اخيها الصغير الملقى على الارض . رأته يتنفس كأنه مع كل تنفسة يكاد ان يلفظ آخر انفاسه رأت وجهه القابل الشفاف ، وعينيه المطبوقتين من الضعف ، ويديه المطويتين على بطنه الملتهب ، ثم سمعت صوته المتقطع يرن في اذنيها « اختي ... بدي آكل ... » فتذكرت انها تركته يبكي ووعدته انها خرجت لتأتيه بخبز . فانقبض قلبها حتى ضاقت انفاسها لما تصورت نفسها راجعة اليه بيدين فارغتين . فوقفت جامدة ويدها على قبضة الباب

السحتوتي بقي واقفاً مكانه ينظر ولا يتحرك ووجهه يدل على انه لم يتأثر من كل ما جرى على الاطلاق . ولما ايقن ان غضب سليمة هدأ قليلاً عاد وفتح فمه

— ألم اقل ان اطوار النساء عجيبة غريبة ؟ هه — هه — هه . اراك لا تزالين متعلقة بابن العطار . فهل قرأت الجريدة الاخيرة من بيروت ؟ لا ؟ اصبري ، اذن ، قليلاً حتى اقرأها لك .

قال ذلك وذهب مطقطقاً بقبقابه الى غرفته ثم عاد وفي يده جريدة واقترب من سليمة قائلاً

— اسمعي اذن . هذا منقول عن بيروت الرسمية بتاريخ ٥ حزيران . « في هذا الصباح انفذ حكم الاعدام شنقاً بفؤاد العطار من بلدة ع . من لبنان بعد ان اثبتت عليه تهمة الخيانة امام المجلس العرفي في عاليه اذ وجد المجلس انه ينتمي الى جمعية تدعى « النهضة اللبنانية » التي غايتها فصل لبنان عن الدولة وجعله امارة مستقلة . » — هذا ما جرى لحبيبك فماذا تقولين بعد ؟ لم ينه السحتوتي كلماته حتى ملأت الدار صرخة هائلة خرجت من صدر سليمة كأن رصاصة اخترقت في تلك اللحظة قلبها

— فؤاد ! ... فؤاد ! ... فو ... آ ... د ...

وقعت سليمة للحال مغشية عليها . اما موسى السحتوتي فلم يضطرب ابداً كأن ما جرى امام عينيه لم يكن من الاهمية على شيء . اقترب على مهله من سليمة المطروحة على الارض واخذها بين يديه كما يأخذ الذئب فريسته ؛

ثم سار بها منحنياً فوقها الى غرفته وعيناه تضحكان

. . . . . .

مرَّ يومان

كانت شمس العصر تنحدر نحو البحر متوكئة عَلَى اشعتها الطويلة المنتشرة في الفضاء · حر النهار انقلب الى برودة ناعمة مخدرة · جرس كنيسة مار بطرس ، المستترة بين اشجار الصنوبر في جهة القرية الشمالية ، كان يدق « دقة حزن » · — دن — دن — دن — فتسبح تموجات هذه الانّات النحاسية فوق اكواخ القرية المتشحة بالحداد ، ثم تخترق بطون الوديان المجاورة حيث تختلط باصوات الحجال وعواء الثعالب ونقيق الضفادع وتموت معها بين شقوق الصخور الابدية الخرساء · عَلَى الطريق المؤدية الى الكنيسة يسير موكب صغير مؤلف من كاهن محدودب مسن ، في يده صليب ومبخرة ، يتبعه اربعة — امرأتان وشيخ وشاب — يحملون عَلَى اكتافهم نعشاً من اغصان الحور والتوت والسنديان · في النعش جثة فتاة عليها اطمار بالية · وجهها يدل عَلَى انها قضت وفي قلبها حقد عَلَى العالم باسره · الى جانبها الايمن تمددت جثة صبي صغير عَلَى وجهه ابتسامة ملائكية · ووراء حاملي النعش كانت تتمرغ بالتراب فتاة لا يزيد سنها عَلَى الثانية عشرة · شعرها الاسود الطويل محلول ومسترسل فوق وجهها وكتفيها · عَلَى خديها الضعيفين امتزج الدمع بالتراب · رجلاها حافيتان مقرَّحتان يسيل منهما الدم هنا وهناك · هي لا تمشي ، بل تتدحرج · تنهض عَلَى مآقيها وتقفز الى فوق

ثم تهبط الى الارض كغزالة اخترقها سهم صياد . ثم تذري التراب على شعرها لاطمة رأسها ووجهها وصدرها وجبينها وناتفة شعرها بيديهـا الضئيلتين . صوتها قد بُحَّ من كثرة الصراخ ، فهي تصيح كأن قد اخذتها يد عاد و بخناقها فيشابه صياحها الخارج من صدرهـا المتقطع فحيح افعى لا صوت بشر : « يا ذلي من بعدك يا سلـ...يـ...مه ! يا تعتيري ياخي...ي...مي.. ! يا تعتيري يا...يا اخ...تي... ! »

جرس ماربطرس ينتحب . دن — دن — دن ... في زاوية بيت من بيوت القرية المذعورة من صولة الموت عجوز مفلوجة تسكب آخر دمعة في عينيها وقد شعرت بيد الموت تطوق عنقها . وفي نيويورك لجنة تنادي : « اغيثوا اهلكم يا ابناء سوريا ولبنان » فيعود اليها نداؤها كصدى صرخة في وادٍ عميق .